

ت. الإرسال: 2025-07-24	ت. القبول: 2025-09-01	ت. النشر: 28 - 12 - 2025
------------------------	-----------------------	--------------------------

استعمال وتحويل العظام الإنسانية في مرحلتي القفصية و النيوليتي ببلاد المغرب

Use and transformation of human bones during the
Capsian and Neolithic periods in the Maghreb

أوزاني فريدة 

جامعة الجزائر 2، الجزائر

farida.ouzzani@univ-alger2.dz

الملخص:

قام الإنسان في فترات ما قبل التاريخ باستغلال العظام البشرية كمادة أولية، من خلال تحويلها إلى أدوات وظيفية أو حلي، وأحياناً إلى عناصر تحمل طابعاً رمزياً أو طقوسياً، خاصة فيما يتعلق بعظام الجمجمة. وتُعتبر هذه الممارسة سائدة لدى العديد من المجموعات البشرية البدائية، حيث يُلاحظ استخدام عظام الجمجمة أكثر من باقي عناصر الهيكل العظمي.

تهدف هذه الورقة البحثية إلى دراسة ظاهرة استخدام العظام البشرية بعد معالجتها، وذلك من خلال تحويلها إلى أدوات ذات طابع نفعي أو رمزي- طقوسي من طرف إنسان ما قبل التاريخ بصفة عامة، ومن قبل إنسان الحضارتين القفصية وإنسان العصر الحجري الحديث (النيوليتي) بصفة خاصة. وتسعى هذه الدراسة إلى فهم الأبعاد الثقافية، والرمزية، والوظيفية لهذه الممارسة داخل تلك المجتمعات، من خلال تحليل البقايا الأثرية المكتشفة في عدّة مواقع أثرية ببلاد المغرب، مع التركيز على نوعية العظام المستخدمة، وتقنيات تشكيلها، وسياقاتها الأثرية والجنائزية.

وتُعدّ بلاد المغرب من بين المناطق الغنيّة بالتنوّع الثقافي والأنثروبولوجي خلال فترات ما قبل التاريخ، حيث كشفت الحفريات عن ممارسات معقّدة في التعامل مع بقايا العظمية. ومن بين أبرز هذه الممارسات، تحويل العظام البشرية إلى أدوات أو تعديلها لأغراض طقوسية أو رمزية. وتفتح هذه الظاهرة، رغم ندرتها، المجال لطرح تساؤلات أساسية حول معتقدات الإنسان في تلك الفترة، وعلاقاته بالهيكل العظمي الإنساني والموت والقداسة.

وتتمحور الإشكالية في محاولة تفسير ظاهرة استخدام وتحويل العظام البشرية في المواقع القفصية و النيوليتية، وتحديد ما إذا كانت هذه الممارسات ذات طابع رمزي وطقوسي، أم أنها ذات وظائف نفعية و اجتماعية.

في هذا السياق، كشفت المواقع القفصية، خاصة الشرقية منها، عن وجود أدوات غير مألوفة تمثلت في عظام بشرية تم تحويلها، استُعملت في الحياة اليومية أو في طقوس معيّنة، وهي ممارسات لم يُعثر عليها ضمن المخلفات السابقة. وقد استمر هذا النمط الثقافي خلال العصر الحجري الحديث، حيث تميّز إنسان تلك المرحلة بابتداع أدوات من العظام بأشكال ووظائف غير معهودة، وهذا ما يعكس تحوّلاً واضحاً في البنية الرمزية للممارسات الجنائزية والروحية.

وقد تمّ اعتماد منهج تحليلي وصفي في هذه الدراسة، انطلاقاً من تحليل عدد من البقايا العظمية والأدوات المكتشفة في مواقع مختلفة، مع جرد المواقع القفصية الشرقية والنيوليتية التي تمّ الاكتشاف فيها على مثل هذه الأدوات. بالإضافة إلى تحليل نوعية العظام المستخدمة، وتقنيات تشكيلها، وسياقاتها الأثرية، ولا سيما الطقوسية والجنائزية منها، وهذا حسب ما جاء في مختلف المراجع المتخصصة.

وأظهرت المعطيات الأثرية أن اختيار العظام، وخاصة عظام الجمجمة، لم يكن عشوائيا أو محض استجابة لحاجات مادية، بل حمل دلالات رمزية وسحرية وروحية عميقة. بحيث بيّنت الدراسة، الاختلاف والتنوع في ممارسات تحويل العظام بين الفترتين القفصية والنيوليتية، كما تعكس التقنيات المستعملة مستوى متقدم من المهارة والتخصص في معالجة العظام البشرية. بالإضافة إلى ذلك، فإنه يظهر الحاجة إلى أدوات متخصصة في الحياة اليومية والممارسات الطقوسية لتلك المجتمعات، ومنه يبرز أهمية العظام البشرية كمادة أولية في تشكيل الهوية والممارسات الطقوسية للمجتمعات البشرية في بلاد المغرب.

الكلمات المفتاحية: تحويل العظام الإنسانية- القفصي- النيوليتي- بلاد المغرب

Abstract:

In prehistoric times, human bones were exploited as a raw material by transforming them into functional tools, ornaments and sometimes into items of symbolic and ritual significance particularly skull bones. This practice was common among many primitive human groups, where skull bones are used more than other skeletal elements.

The goal of this paper is to study the phenomenon of using human bone remains by transforming them into tools for practical and symbolic-ritual usage. This relates to humans from prehistoric times in general, with a focus on the Capsian civilization and humans from the Neolithic. We aim to understand the cultural, symbolic, and functional aspects in these societies by analyzing remains from several locations in the Maghreb with a focus on the types of bones, modification techniques and their archaeological and funerary contexts.

The Maghreb is a region rich in cultural and anthropological diversity in prehistoric times. Indeed, there have been several excavations that showed complex practices in dealing with human remains. These include transforming bones into tools or modifying them for ritualistic or symbolic use. These practices raise important questions about the belief systems of prehistoric humans as well as their relationship to the human skeleton, death, and the sacred.

The challenges we tackle in this paper relate to the interpretation of the practice of using and transforming human bones in the Capsian and Neolithic sites and the determination of whether these practices were symbolic and ritual in nature or simply served utilitarian and social functions. The Capsian sites, especially those in Eastern Maghreb, revealed unusual tools made from modified human bones, used either in daily life or ritual contexts, practices not found among previous remains. This cultural pattern continued into the Neolithic period, where humans produced bone tools with unprecedented shapes and functions, indicating a clear shift in the symbolic structure of funerary and spiritual practices.

This study adopts a descriptive and analytical methodology by analyzing several bone remains and tools in various archaeological sites, along with an inventory of Eastern Capsian and Neolithic sites where such items were found. In addition, the types of bones, the techniques to shape them, and their archaeological contexts, particularly ritual and funerary, were analyzed, based on the existing literature.

Our findings show that the use of bones, especially skull bones, was neither random nor a response to utilitarian needs but was deliberate carrying out deep symbolic, magical, and spiritual meanings. The study showed the differences and diversity in the practices of transforming bones between the Capsian and Neolithic periods. In addition, the used techniques reflect an advanced level of skills in processing human bones. Finally, it indicates the need for specialized tools in the daily life and ritual practices of those communities, highlighting the importance of human bones as raw materials in shaping the identity and ritual practices of human societies in the Maghreb.

Keywords : Human bones transformation; Capsien ; Neolithic ; Maghreb.

المؤلف المرسل: فريدة أوزاني، الإيميل: farida.ouzzani@univ-alger2.dz

المقدمة

قام الإنسان في ما قبل التاريخ باستغلال العظام الإنسانية كمادة أولية، بتحويلها إلى أدوات للحلي أو أدوات نفعية. كما قام باستغلالها في الجانب الطقوسي والروحي، خاصة عظام الجمجمة، وتعتبر هذه الممارسة عادية لدى الكثير من المجموعات البشرية البدائية. ومن المعروف والشائع لدى هذه الشعوب، استعمال عظام الجمجمة بكثرة بدلاً من العظام الأخرى التي تشكل الهيكل العظمي.

تهدف هذه الدراسة إلى المساهمة في كشف أهم ما جاء في هذا المجال الغامض عن حياة المجموعات البشرية التي عمّرت مواقع ما قبل التاريخ، من خلال التعرف على هذه المواد العظمية. كما تسعى هذه الورقة البحثية إلى إبراز أهم ما عُثر عليه، خصوصاً في المواقع الأثرية لما قبل التاريخ ببلاد المغرب، من مواد عظمية حوّلت من عظام الإنسان إلى أدوات نفعية أو طقوسية وعقائدية.

ورغم أن البحث في موضوع استعمال العظام البشرية في ما قبل التاريخ ببلاد المغرب فهو لا يزال في بداياته، فقد ظهرت الأبحاث الأولية المهمة والمتعلقة بهذا الشأن في أعمال عدد من الباحثين بحيث تشير إلى تنوع المجالات التي يتم فيها استعمال العظام الإنسانية. وعلى الرغم من الاعتقاد بأن استعمال العظام الإنسانية نادر ويُعتبر سلوكاً استثنائياً، إلا أنه يجب أن يأخذ هذا الموضوع حيزاً واسعاً، كما يجب أن يمثل البحث عن هذه الآثار جزءاً أساسياً في دراسة الحياة اليومية وطقوس ومعتقدات شعوب ما قبل التاريخ.

في هذا الإطار، تجدر الإشارة إلى أنّ هذا النوع من الدراسات لا يزال في بداياته ببلاد المغرب، غير أنّ بعض الباحثين قد أولوه اهتماماً ملحوظاً، وأسفرت نتائجهم الأولية عن معطيات واعدة، ومن بين هذه الأعمال نذكر اسهامات الباحثة Camps-Fabrer H. حول استخدام العظام البشرية لأغراض طقوسية أو رمزية في عدة مواقع أثرية، مثل كولومناطة، مجازا، ومشتى العربي، كما ورد في أعمالها (1963, 1966, 1975).

كما أشارت Grébenart D. (1993) إلى اكتشاف جمجمة بشرية بموقع فايد السوار (عين البيضاء)، مقطوعة على مستوى النتوءات الجدارية، مع وجود ثقبين في هذه المنطقة، ما يرجح أنها كانت تُعلّق على عمود أو تُستخدم كقلادة تعلق حول العنق.

وفي نفس السياق، كشفت الحفريات في مواقع ما قبل التاريخ، منذ المرحلة القفصية، عن أدوات غير مألوفة ذات طابع مختلف، لم يعثر مثلها في الفترات السابقة. كما تم العثور على نموذج شبيه بقناع فايد السوار في موقع تافورالت (المغرب الأقصى) الذي يعود إلى الثقافة الايبرومغربية حسب شواكري (Aoudia-Chouakri :414). وقد استمرت هذه الممارسات خلال العصر الحجري الحديث.

يُعتبر الوجه الثقافي القفصي مرحلة هامة من العصر الحجري القديم المتأخر في شمال إفريقيا، حيث تتمركز معظم مواقعه في الجهة الشرقية الجزائرية-التونسية، ويُطلق عليها اسم الرماديّات (Balout, 1955; Camps, 1974).

وقد تمّ تأريخ أقدم وجود لهذا الوجه الثقافي القفصي إلى 7350 ق.م. في موقع عين الناقة، و6910 ق.م. في مجاز 2، بينما أحدث تأريخ يعود إلى 4500 ق.م. بموقع المرموتة (Camps, 1974).

وقد استخرجت من هذه الرماديات بقايا عظمية إنسانية ذات مورفولوجيا مختلفة تدل على تنوع شعوب هذه الفترة. وكانت هذه البقايا مجال دراسة العديد من الباحثين (M.-C. Chamla, 1970, 1978; Briggs L.C. 1955). وقد تمّ تصنيفها إلى نوعين رئيسيين: نوع شبيه بمشتى أفالو ونوع شبيه بالمتوسطي الخشن، مع وجود اختلافات ضمن كل نوع.

ومما يجب الإشارة إليه، كما بينته الدراسات الأثرية، هو تلك الظاهرة الثقافية التي كانت تميّز الإنسان القفصي كما ميّزت الإنسان الإيبرومغربي من قبل، وهي ممارسة القلع الطقوسي للأسنان؛ إذ نجد أن نزع القواطع السفلية والعلوية عند النساء هو الغالب مقارنة بالرجال (Arambourg C.1934, Briggs L.C. 1955, Camps G.1974, Chamla, M-C. 1969, 1970, 1978).

وفيما بعد، في العصر الحجري الحديث والمؤرخ ما بين الألف الخامسة والثالثة ق.م.، شهدت شمال إفريقيا تراجعاً تدريجياً لنوع "فجر المتوسطي الخشن"، بالتزامن مع ظهور نوع "المتوسطي النحيف"، المختلف تماماً عن نوع فجر المتوسطي ومشتى أفالو. وقد أثبتت الأبحاث تركز هذا النوع خاصة في المواقع الغربية (واد قتارة، تروقلوديت، ريوسلادو، وغيرها). كما ظهر في الجهة الشرقية نوع آخر مختلف تماماً يُعرف بالنوع الزنجي (موقع الرديف بتونس)، مع وجود نوع مشتى أفالو بصفة قليلة، مع استمرار نوع فجر المتوسطي النحيف دون اختفاء النوع الخشن. أما ظاهرة القلع الطقوسي فهي تكاد تختفي في هذه المرحلة، باستثناء بعض المناطق الغربية حيث تواجدت آثار القلع الطقوسي بشكل كبير (Chamla , 1978: 385).

ومما يلفت الانتباه هو تواجد مواد صُنعت من عظام الإنسان في هذه المواقع، حيث تُعتبر عملية تحويلها من بين الأنشطة التي مارسها الإنسان ليس فقط لأغراض فنية أو كمادة أولية لصناعة الأدوات، وإنما لأهداف أخرى لها علاقة بالجانب السحري. وقد بيّنت الدراسات الأثرية أن بداية الاهتمام بهذا الجانب يرجع إلى المرحلة القفصية واستمر حتى المرحلة النيوليتية في بلاد المغرب. ومن أهم هذه الإنجازات نذكر الحالات التي تمّ العثور عليها، والتي ذكرت ووصفت من طرف الباحثين حسب تاريخ اكتشافها من الأقدم إلى الأحدث، وانتمائها الحضاري في المواقع التالية: (خنقة الموحد، عيون بريش، بورتال الفاخر، فايد الصوار، مشتى العربي، مجاز 2، كلومناطة). وأغلب أنواع العظام التي استُغلت لهذا الغرض هي عظام الجمجمة وبعضها من العظام الطويلة، وحالة واحدة لفك سفلي.

وعليه تتمحور إشكالية هذه الورقة البحثية حول بداية وتطور الصناعة العظمية، ومكانتها في إعادة تصوير الحياة الروحية والرمزية لإنسان ما قبل التاريخ في بلاد المغرب، وانطلاقاً من هذا تُطرح تساؤلات فرعية حول التعرف على ما تمثله هذه المواد وما هو الغرض من إنجازها. كما تسعى الدراسة إلى تحديد أنواع العظام التي تمّ تحويلها للاستعمال، والهدف من ذلك عند سكان مواقع القفصية والنيوليتية، ومدى استطاعة الأدلة الأثرية المتوفرة اليوم مساعدتنا في تشكيل صورة متكاملة عن الحياة الثقافية والروحية لإنسان تلك الفترات في بلاد المغرب.

وللإجابة على هذه الإشكالية اعتمدت الدراسة على منهج تحليلي وصفي، تمّ من خلاله احصاء الأدوات المصنوعة من العظام البشرية، والتي كُشف عنها في المواقع القفصية الشرقية والنيوليتية. كما شملت المنهجية

تحليل طبيعة العظام وأنواعها، وتقنيات معالجتها وصناعتها، والسياقات الأثرية والجنائزية المرتبطة بها. كما تمّ دعم هذه المقاربة بالاعتماد على الدراسات السابقة والمراجع المتخصصة التي ساهمت في توثيق هذه الظاهرة.

1. استعمال العظام الانسانية في المواقع القفصية والنيوليتية

من الممارسات الثقافية عند الشعوب القفصية، بالإضافة إلى القلع الطقوسي للقواطع الذي كان يمارس بشكل عادي عند القفصيين وقبلهم عند الإيرومغربيين، وهما ثقافتان تنتميان إلى العصر الحجري القديم المتأخر، ظهرت ظاهرة تحويل العظام الإنسانية إلى أدوات نفعية أو مواد طقوسية.

تمّ العثور على بقايا عظمية إنسانية تمّ تحويلها ثمّ استعمالها من قبل إنسان الفترة القفصية، وقد شملت أجزاء معينة من الهيكل العظمي، مثل العظام المسطحة في الجمجمة والعظام الطويلة في الأطراف.

1. 1. موقع مشتي العربي

تقع رمادية مشتي العربي في منتصف الطريق بين سطيف وقسنطينة قرب شلغوم العيد، وتم التعرف عليها من قبل مرسّي G. Mercier في عام 1907. تقع على خريطة الجزائر بمقياس 50000/1، ورقة رقم 119، سانت دونات.

الموقع عبارة عن رمادية تعود إلى فترة القفصية الأعلى، حيث تتميز هذه الفترة بوجود نسبة كبيرة من الأدوات صغيرة الحجم الهندسية الشكل. ومن حيث البقايا الإنسانية، فقد تمّ العثور على بقايا لحوالي 30 شخصاً في هذه الرمادية، وهم في حالة حفظ متفاوتة من شخص إلى آخر (Balout, 1955: 139).

جمجمة موقع مشتي العربي

خلال البعثة الأثرية الأمريكية إلى إفريقيا الشمالية في عام 1927، اكتشف الباحث ديبروج Debruge جزأين من جمجمة تحمل ثقبين للتعليق، ذات أهمية كبيرة فيما يخص العظام التي تم تحويلها. وكانت هذه القطعة ذات أهمية كبيرة إذ تعتبر المرة الأولى التي يُعثر فيها على مثل هذه القطعة، بحيث تمّ وصفها ورسمها من طرف نفس الباحث، حيث قال آنذاك أنّ مثل هذه الممارسات لا تزال سائدة في أمريكا عند بعض الشعوب البدائية ومناطق أخرى من العالم إلى يومنا هذا (Camps-fabrer, 1966: 180).

ومن خلال دراسة الباحثة كامبس فابرار Camps-Fabrer في 1959 للمجموعات الأثرية المحفوظة بالمتحف العمومي الوطني البارودو (الجزائر العاصمة)، تمّ التعرف على القطعة بوصفها على النحو التالي: هي قطعة مكونة من جزأين من عظم الجبهي لجمجمة إنسان بالغ، تحمل ثقبين، ويظهر الدرز الجبهي من الداخل. وتمت تقنية النشر (partie sciée) على الجهة الخلفية للتجويفات الجبهية، وأما الحافة فهي مصقولة بطريقة دقيقة، ولم يُجرَ على الجانب الخلفي للعظم أي تهذيب، فإنه محفوظ بشكل جيد. وجاء موضع الثقوب من الجهة الأمامية على الحافتين (شكل 1).

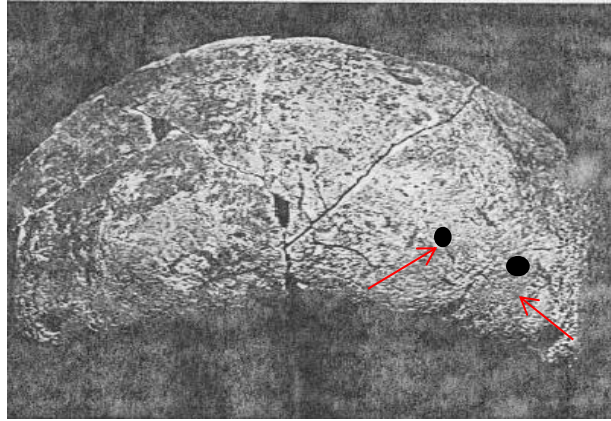
وحسب ما رجّحته نفس الباحثة فيما يخص وظيفة هذه القطعة، فإنها غير معروفة، حيث نفت استعمالها كقلادة، ثم أضافت أنّ هذا يرجع إلى هيئتها العامة وعملية النشر والصقل والثقب التي أجريت عليها،

عكس ما ذكره العديد من الباحثين الذين نسبوا استعمال عظام الجمجمة إلى وظيفة التعليق كقلادة (Camps-180: Fabrer 1966).

وقبل هذا، أي في عام 1954، فقد ذكر الباحث بالوط (Balout) حول وظيفة هذه القطعة أنها تبدو غامضة نوعاً ما. وحسب نفس الباحث، فإنّ القطعة التي أرسلت من أمريكا إلى متحف البارودو ليست نفسها التي عُثِر عليها من طرف الباحث ديبروج Debruge في 1927؛ فبمقارنة الوصف والرسم الذي قام بهما هذا الأخير، فإنّ تلك القطعة كانت تحمل ثلاثة ثقوب بدلاً من اثنين كما في القطعة المحفوظة في المتحف.

شكل 1:

قطعة من جمجمة ذات الثقبان لموقع مشى العربي



محفوظة في المتحف العمومي الوطني البارودوالجزائر العاصمة

العظام الطويلة

في عام 1952، تم العثور من قبل الباحث بارثي Berthier في موقع مشى العربي على عظم طويل تمّ تحويله ثم استعماله كأداة. العظم هو عظم الشظية الذي تمّ تشذيبه ثم صقله بطريقة ممتازة لاستعماله كخنجر (أنظر الشكل 2) (Balout 1955: 145).

شكل 2:

شظية (fibula) تم تحويلها إلى خنجر موقع مشى العربي



المرجع: (Balout L.1955:145).

1. 2. موقع كلومناطة

إنّ موقع كلومناطة عبارة عن ترسيب أثري ذو طبيعة طينية رملية، يقع في أسفل الجرف، على بعد 1500 م جنوب شرق بلدية سيدي حسني ولاية تيارت. (الخريطة /2000001، رقم 22، تيارت)، و(الخريطة /500001، الورقة رقم 187، س = 393.8 و ع = 240.6).

سمحت أعمال الباحثين كادنا (1948 - 1966) P. Cadenat و براهيمي (1972) C. Brahimى و كامبس G. Camps (1974-1982)، إضافة إلى أعمال شاملة (1970) M. C. Chamla، بالتعرف بشكل جيد على هذا الموقع واستراتيجيته، حيث تمّ تحديد أربعة مستويات، وهي: المستوى الإيبرومغربي، والمستوى الكلومانطي، والمستوى القفصي الأعلى المتأخر، والمستوى النيوليتي ذو التأثيرات الصحراوية.

تنتمي البقايا الإنسانية التي تمّ العثور عليها في هذا الموقع إلى نوع مشقّ أفالو مع ميله إلى النحافة. ويفوق عدد هذه البقايا 100 شخص، من بينهم بقايا عديدة لأطفال. ومعظم البقايا عُثِر عليها في المستوى الإيبرومغربي، بينما عُثِر على بقايا لشخصين فقط في المستوى النيوليتي.

الموقع عبارة عن مقبرة فيها قبور فردية، ووضعيّات الأشخاص مختلفة؛ منها وضعية الامتداد الجانبي أو الظهري مع الأرجل المثنّية، وهذه الوضعيّة هي الأكثر رواجًا. وأغلبية البقايا العظمية عُثِر عليها في حالة حفظ جد متدهورة، فأعيد تركيبها في مخبر الأنثروبولوجيا بمركز الأبحاث الأنثروبولوجية وماقبل التاريخ والاثنوغرافية سابقا (C.R.A.P.E.).

جمعية موقع كلومناطة

كشّف هذا الموقع عن قطعة من العظم الجداري للجمعية تمّ تحويلها ثمّ استخدامها كقلادة ذات شكل بيضوي، وتحتوي على ثقب واحد للتعليق عند الحافة ذات الشكل المثلث الحاد (شكل 3). وقد تمّ التطرق إلى هذه القطعة في القسم المخصص للحلقات الجمعية.

شكل 3:

قلادة على العظم الجداري لموقع كلومناطة عبارة عن حلقة جمعية



المصدر: (Cadenat P. et al.1994 :10)

الفك السفلي لموقع كلومناطة

فيما يتعلق بالعظام التي تمّ تحويلها، فقد عُثِر في موقع كلومناطة على فكّ سفلي مكسور إلى قطعتين، جرى إلصاقهما عند اكتشافهما. تميّز هذا الفكّ بإزالة فروعه الصاعدة عن طريق النشر، كما أُجريت عملية حك وصقل على سطحه الخلفي وعند مستوى الضرس الثالث من الجهة الخارجية، بهدف تغيير مظهره الجانبي ومنحه شكلاً مقوّساً نوعاً ما، تاركاً بذلك أثراً تشبه الحرف اللاتيني V. وبعد ذلك، طُليت كامل مساحة الفكّ بالمغرة الحمراء (شكل 4). ومن الملاحظ أيضاً وجود ظاهرة القلع الطقوسي للقواطع المركزية، وهي ظاهرة سُجلت عند العديد من أفراد نوع مشقّي أفالو بحسب ما أوردته الباحثة (Cadenat P., 1940:10).

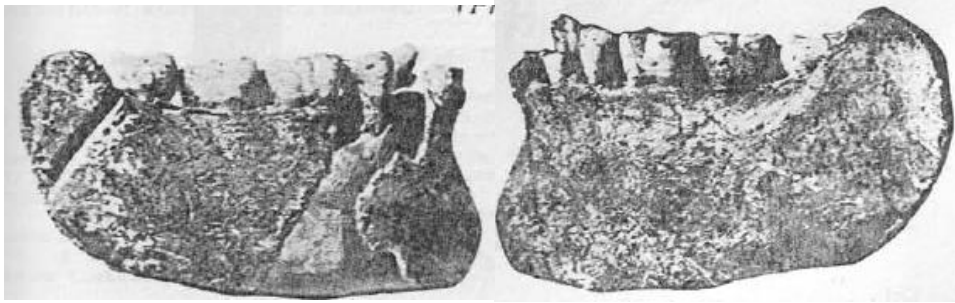
أمّا بخصوص تفسير هذه القطعة ومعناها، فقد قدّم الباحث (Cadenat P., 1940:11)، وهو من أوائل من اكتشفوا الموقع الأثري بكلومناطة، عدّة فرضيات، منها:

1. استبعاد كونها أداة لها صلة بالحي؛
2. نفي فكرة اعتبارها مجرد تحفة، إذ يشير قلع القواطع إلى أنّها أداة مخصّصة للتعبّد والإجلال؛
3. ورأى الباحث أنّ هذه القطعة صُنعت لأغراض طقوسية تعبّر عن الإجلال والتقدير، وأنّ الموقع ربّما كان مسكناً لساحر أو قائد، أو مكاناً مقدّساً.

وفي السياق ذاته، أضافت الباحثة كامبس فابرار أنّ هذه الفرضيات لا تتعارض مع وفرة الحلي الجميلة والأدوات الحجرية المشدّبة بعناية الموجودة في الموقع، ممّا يدفع إلى الاعتقاد بأنّ هذه الأدوات كانت ذات طابع نذري (Camps-Fabrer, 1966:35; Cadenat P., 1940:10).

شكل 4 :

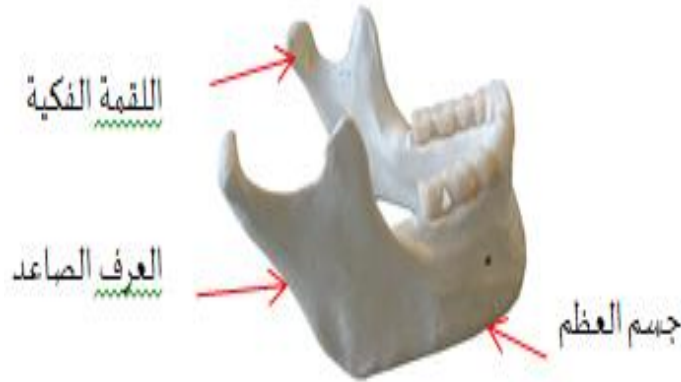
فك سفلي حول بتقنية النشر ومطلّي بالمغرة الحمراء لموقع كلومناطة (قفصي علوي)



المصدر: (Cadenat P., 1940 :11)

شكل 05:

صورة توضيحية لأجزاء التشريحية الفك السفلي



المصدر: (on vi.Wiktionary.org) بتصرف

العظام الطويلة

تمّ العثور في مقبرة كلومناطة على العديد من البقايا العظمية الأنثروبولوجية، التي درسها العديد من الباحثين، ومن بينهم كادنا مكتشف الموقع. ففي عام 1948، عُثر على ثلاثة عظام طويلة خضعت لتحويلات. وُجدت هذه البقايا بجوار الهيكل العظمي رقم H8، وهي: العضد والكعبرة والزند، وكلّها تعود للجهة اليمنى لنفس الهيكل العظمي، وقد تمّ تنفيذ هذه التعديلات بتقنية النشر.

وفقاً للوصف الذي قدّمه المكتشف، فإنّ العضد (شكل 6) والزند (شكل 7) لم يتبقّ منهما سوى الحواف القريبة من المرفق، حيث تمّ إزالة جسم العظم الأساسي لكليهما بغرض الحصول على هذه الأدوات. أمّا عظم الكعبرة (شكل 8)، فلم يتبقّ منه سوى الجزء المستقيم من جسم العظم، إذ نُشرت الحواف وتمّ حذف الأجزاء المفصليّة.

شكل 6:

الجزء السفلي من عظم العضد 1



شكل 7:

الجزء السفلي من عظم الزند 2



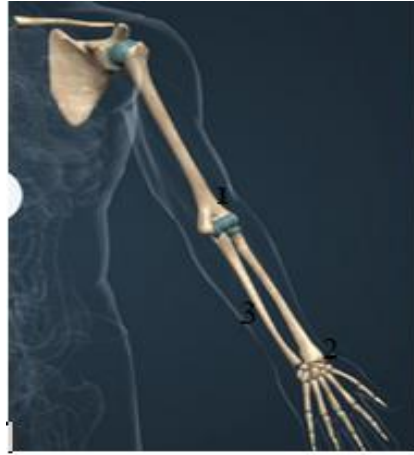
شكل 8:

جزء من جسم عظم الكعبرة 3



شكل 9:

صورة هيكل عظمي توضيحي لهيكل الطرف العلوي



المصدر: (on vi.Wiktionary.org) بتصرف

3.1. موقع مجاز 2

تمت الإشارة إلى وجود موقعين قفصيين في سنة 1955 من طرف فارقي M. Verguet، مدير الدائرة الأثرية LXV° آنذاك. يقع هذان الموقعان قرب مدينة سانت أرنو (مجاز)، حيث يقطع الطريق رقم 154 مقاطعة سانت أرنو وصولاً إلى المحطتين 1 و 2 في فج مزالا. (الخريطة IGN 1/50000، الورقة رقم 94 لسانت أرنو).

تكمن أهمية هذا الموقع في استخراج هيكل عظمي لإنسان من طرف فارقي في مجاز 1، وبعد اكتشاف البقايا الإنسانية في عام 1962، نظم الباحث كامبس مع مجموعة من الباحثين بعثة من مركز البحث CRAPE سابقاً، ضمت كلاً من كامبس و فابرار و راماندو و L. Ramendo و لو فابره G. Lefebvre للتنقيب في الرمادية. وقد أظهرت دراسة الأدوات الحجرية المكتشفة أنها تعود إلى الفترة القفصية العليا. تلت ذلك الدراسة الأنثروبولوجية للبقايا العظمية من طرف باحثي المركز، لكن لسوء الحظ كانت حالة حفظ هذه البقايا رديئة للغاية.

وبعد الدراسة، تبين أن قامة هذا الشخص تبلغ حوالي متر و 72 سنتيمتر، وعمره يتراوح ما بين 18 و 20 سنة، ومن جنس ذكر، ولا ينتهي إلى نوع مشق العربي.

لقد تمتّ عمليات التنقيب في الرمادية خلال الأعوام 1963، 1965، 1966، 1967 من طرف فارقي ، ثم استؤنفت في عامي 1967 و1968 من قبل الباحثة فابرار .

سمحت هذه العمليات التنقيبية المتتالية باكتشاف بقايا أثرية كثيرة، تمثلت في صناعة حجرية وعظمية وحلي وبقايا عظمية حيوانية، إضافة إلى بقايا عظمية إنسانية تضم هياكل كاملة في حالة حفظ جيّدة لأشخاص بالغين وحديثي الولادة، وأخرى بحالة حفظ سيئة. وما يجب الإشارة إليه هو أنّ من بين هذه البقايا وُجدت عظام أُجريت عليها بعض التغييرات عمدًا، سنذكرها فيما يلي.

العظم القذالي المنشور لجمجمة موقع مجاز 2

خلال سنة 1965، اكتشف الباحث فارقي في موقع مجاز 2 بقايا عظمية أخرى، تمثلت في عظام جمجمة إنسان استعمل فيها العظم القذالي. عُثر على هذا العظم مجزأً إلى ثلاث قطع متصلة فيما بينها، حيث أُجريت عليه عملية نشر من الجهة الخلفية دون الوصول إلى الدرز اللامي (شكل 10) الذي بقي على هيئته الأصلية. وبفضل حالة الحفظ الجيّد للعظام، يمكن الاستنتاج أنّها كانت على اتصال تشريحي عند القيام بعملية النشر. من الوجه الداخلي، يُلاحظ أنّ الحد الطولي للتجويف العلوي والقناة المخية محفوظان بشكل جيد، إذ تمت عملية النشر فوق التجويف الجانبي وليس عليه، ما أدّى إلى اختفاء الجانب الخلفي. أمّا من الجهة اليمنى للنتوء العظمي الداخلي، فتبرز عدّة حزوز مميزة بشكل واضح. ومن الجهة الخارجية، يمكن ملاحظة فتحتين أنجزتا بعملية النشر، لكن صقل الحافة الخلفية أدّى إلى اختفاء كل أثر للنشر في هذه الجهة.

وأخيرًا، لم تُلاحظ أي آثار للمغرة الحمراء ولا ثقوب على العظم القذالي المنشور في موقع مجاز 2، وذلك وفقًا لما ذكرته الباحثة (Camps-fabrer H., 1966: 182; 1975: 32).

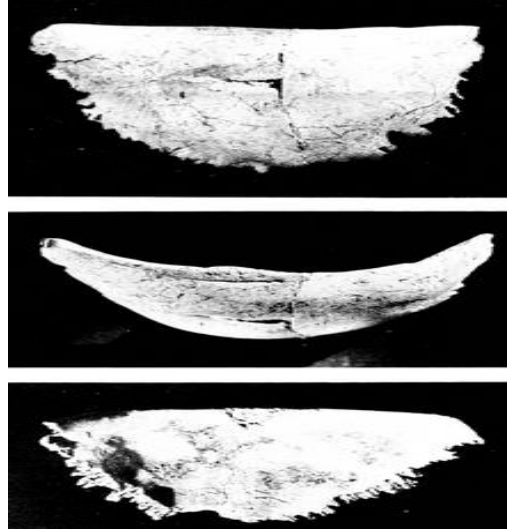
4.1. موقع فايد السوار

تقع رمادية فايد السوار بين جبال الطارف وسيدي رجيس في الهضاب العليا لمدينة قسنطينة. وقد تمّ التنقيب في الموقع لأوّل مرّة من طرف M.G. Laplace عام 1954، إذ كان أوّل من اكتشف رماديتين: فايد السوار 1 وفايد السوار 2، وتعرّف عليهما خلال أعمال التنقيب التي قام بها في رماديات منطقة واد قتارة، على بُعد 70 كلم جنوب شرق قسنطينة.

عُثر في هذا الموقع على بقايا عظمية تعود لشخص واحد من النوع المتوسطي، كانت في حالة حفظ متدهورة جدًّا، وقد أُجريت على جمجمته بعض التحويلات عمدًا.

شكل 10 :

عظم قذالي تمت عليه تقنية النشر لموقع مجاز 2 (Camps G.1974:64)



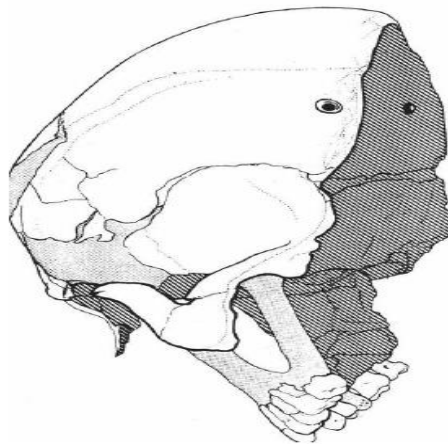
قناع رمادية فايد السوار

تمّ العثور على بقايا جمجمة إنسان من قِبل الباحث لابلاس Laplace G. عام 1953، وقد أُعيد استعمال هذه الجمجمة وتحويلها إلى قناع (شكل 11). وفي عام 1958، قام الباحث بالوت بوصف هذه القطعة الفريدة من نوعها في بلاد المغرب، حيث ذكر أنّه تمّ تنفيذ تقنية النشر من الأذن إلى الأذن، وطُليت الحافة بالمغرة الحمراء، إضافة إلى وجود ثقبين على الجانبين لتعليقها حول الرقبة. كما رُصّع سنّ كاذب داخل الفكّ العلوي، مُشكّل على سلامى إنسان، وهي عملية نُقّدت بعد وفاة الشخص عند إنجاز القناع.

يُرجّح أنّ هذا الإنجاز استُخدم لأغراض طقوسية وفقاً لنفس الباحثة، إذ قد يكون محاولة لإعادة تشكيل رأس ميّت أو رأس أحد الأسلاف بهذا القناع. ومع ذلك، يبقى هذا التفسير مجرد فرضية نظراً لعدم توفّر تفاصيل أخرى حوله (Camps-Fabrer, 1966:182).

شكل 11:

جمجمة الغنيمة (قناع) لموقع فايد السوار حسب فالوا H. V. Vallois



المصدر: Grebenart D.1993:6

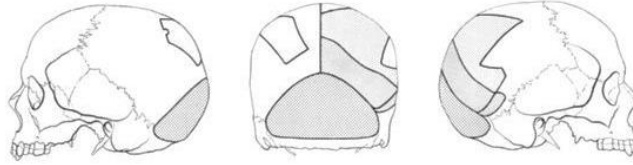
بعد ذلك، ظهرت محاولات تفسير أخرى مبنية على المقارنة. فقد بينت الدراسات الإثنوغرافية أن شعوباً أخرى قامت بإنجاز مماثل؛ فعند بعض الجماعات البشرية الحالية التي تعيش على النمط البدائي في منطقة ميلانيزيا بالمكسيك، وعند هنود الأوروغواي، استعمل الجزء الأمامي من الجمجمة مع إضافة الفك السفلي لإنجاز قناع. وما يلاحظ هنا هو وجود ثقبين متقابلين على العظمين الجداريين، مما يتيح تثبيت القناع.

ويعتقد أن العناصر الجمجمية المختلفة (شكل 12)، التي وصفها الباحثون وتم العثور عليها في مختلف المواقع الأثرية (كلومناطة، مشق العربي، ومجاز 2)، تنتمي إلى وثائق ماثلة أو تشبه تماماً ما أنجز في موقع فايد السوار.

وحسب ما ذكر من طرف الباحثة كامبس فابرار Camps-Fabrer، فإن مهما كان شكل هذه المواد، سواء كانت جماجم كاملة أو مجزأة، فإنها تعود إلى عناصر تتجاوز أهميتها مجرد كونها قلادة بسيطة، (Camps-Fabrer 1966:180).

شكل 12:

موضع العظام التي تم تحويلها في الجمجمة



المصدر: (Camps -fabrer H.1975)

وقد طُرحت تفسيرات أخرى حول الهدف من إنجاز قناع فايد السوار، استناداً إلى المقارنات التي أجرتها الباحثتان أودية شواكري و بوكانتان (Aoudia-chouakri L., Bocquentin F. 2009: 177) إذ يتمحور السؤال الرئيسي حول وظيفة الجمجمة المعدلة التي تم اكتشافها في القبر 1 من موقع فايد السوار 2: هل كانت قناعاً، أم راية انتصار، أم بقايا مقدسة لأحد الأجداد، أم أنها ببساطة تمثل مرحلة من مراحل طقس جنائزي؟ وقدّم فالوا H. Vallois تحليلاً، استناداً إلى مقارنات إثنولوجية، يقترح فيه عدّة فرضيات؛ فقد تكون الجمجمة قد عُلقت كعنصر مقدّس، سواء ضمن عبادة لسلف ما أو كجمجمة عدو، أو ربما كعلبة سحرية. ومع ذلك، استبعدت فكرة كونها قناعاً تقليدياً بسبب عدم توافق حجم الجمجمة مع حجم رأس إنسان بالغ.

وأضافت الباحثتان أن التعديلات التي أُجريت على جمجمة فايد السوار 2 مذهلة، لكن اكتشاف بقايا بشرية أخرى، سواء كانت أجزاء من الجمجمة أو من الهيكل العظمي بعد الجمجمة، في مواقع مشابهة، يشير إلى أن هذا النمط من المعالجة الجنائزية ليس فريداً، بل عُثر عليه في فضاءات متنوعة، قد تكون جنائزية أو سكنية. وهذا ما قد يدلّ على وجود عدّة مراحل ضمن طقس واحد: مرحلة الاستخدام المؤقت لهذه الجمجمة كقناع، ثم مرحلة التخلي عنها عندما تنتفي الحاجة إليها.

وأوضحت الباحثتان أنّ الجمجمة لم تُدفن إلاّ بعد مرور فترة زمنية ما، وربما بقيت بين الأحياء إلى حين تحلل الجثة أو انقضاء فترة الحداد. وخلال تلك المدّة، ربما استُخدمت الجمجمة كقناع أو كتمثال عُرض لفترة قصيرة. ومع ذلك، فإنّ عدم وجود آثار تآكل في الثقوب الموجودة فيها يشير إلى أنّها لم تُعلّق، على الأقلّ ليس عبر هذه الفتحات. وربما عُرضت بشكل أقلّ ظهوراً أو استُخدمت خلال طقوس قصيرة المدى

في الختام، قد تمثّل هذه الجمجمة المعدّلة في فايد السوار 2 مرحلة وسيطة ضمن طقس جنازي معقّد، يشمل تقديس الجمجمة والاحتفاء بها مؤقتاً قبل التخلي عنها في القبر (Aoudia-chouakri L., Bocquentin F. 2009: 177).

5.1. موقع أعيون بريش

الموقع عبارة عن رمادية تقع على بعد حوالي 15 كلم شمال-شمال غرب مدينة عين بيضاء، على الطريق المؤدّي إلى سوق أهراس. تظهر على خريطة الجزائر بمقياس 50000/1، الورقة رقم 149 عين بيضاء، والورقة رقم 123 جان ريقال (Jean Rigal) قرية بريش حالياً. يعود هذا الموقع إلى الفترة القفصية العليا والعصر الحجري الحديث.

تمّ اكتشاف الموقع عام 1930 من قبل بعثة بوند و جا نكس A.W. Pond وA.E. Jenks، ويُعدّ هذا الموقع رقم 12 ضمن تنقيبات البعثة الأمريكية التابعة لمتحف لوقان في ويسكونسن (1930-1929).

عُثر في هذا الموقع على 13 هيكلًا عظميًا، بعضها مكسور، ويعود بعضها الآخر إلى فترة أحدث. في عام 1955. أعدّ الباحث Balout L. قائمة بهذه الهياكل، حدّد فيها رمزًا لكل هيكل ومرحلة انتمائه وتاريخ العثور عليه. أمّا علامة الاستفهام الواردة في قائمته، فهي تشير إلى الهياكل التي تعدّر التأكد من المرحلة التي تنتمي إليها (Balout L. 1955:124).

استعمال العظام الطويلة

ومن بين البقايا العظمية التي عُثر عليها في هذا الموقع، تمّ اكتشاف عظم كعبرة جرى تحويله لِيُستعمل كمطرقة لينة (retouchoir). وبحسب ملاحظات الباحث بوند A. Pond آنذاك، فإنّ حافة هذا العظم كانت مكسورة، ويبدو أنّ الكسر تمّ بطريقة متعمّدة وفقًا لما أشار إليه الباحث (Camps G. 1974:176).

6.1. موقع خنقة الموحد

تقع محطة خنقة الموحد بين قرية بكارية ومنجم الكويف، على بُعد 17 كلم شرق تبسة، على ارتفاع يتراوح بين 980 و990 م، وذلك على المنحدر الغربي لجبل الغراب، الذي يُشكّل سلسلة جبلية تُكوّن الحدود الطبيعية بين الجزائر وتونس في هذه المنطقة. (خريطة الجزائر بمقياس 50000/1، ورقة تبسة).

أشير إلى هذا الموقع لأول مرة من طرف لاتابي M. Latapie الذي يعود له الفضل في اكتشاف المحطات الرئيسية بضواحي تبسة، ويُعتبر الموقع عبارة عن رمادية تعود إلى الفترة القفصية العليا.

في عامي 1910 و 1921، قام A. Debruge ببعض الأبحاث المحدودة في الرمادية، أسفرت عن العثور على بقايا عظمية (فك علوي، وفك سفلي، وفقرات، وسلّميات). أمّا في سنة 1928، فقد قامت البعثة الأمريكية التابعة لمتحف لوقان بالولايات المتحدة الأمريكية بإجراء حفريات مهمة في الموقع تحت إشراف الباحثين كولي و نسبيت Nesbitt و Collie، وكان الباحث ديبروج A. Debruge مستشارًا لها. وقد أسفرت كل هذه الأعمال التنقيبية عن كمية معتبرة من البقايا العظمية الإنسانية، من بينها هيكل كهل ذكر (اكتشاف بعثة متحف لوقان)، عُرف فيما بعد باسم "خنقة الموحد رقم 2" في سجلات مخبر متحف البارود، وجمجمة كهل ذكر وهيكل كامل لذكر (دفن حديث)، وهما محفوظان في متحف لوقان. ومع ذلك، لم تُنشر نتائج هذه الأبحاث (Morel J. 1953:103; Balout L. 1955:115).

فيما يخص الأسبار التي أُجريت عامي 1938 و 1939، فقد أظهرت بعض البقايا الإنسانية في حالة حفظ رديئة. وفي عام 1944، اكتشف الباحث مورال J. Morel بقايا جمجمة معروفة باسم "خنقة الموحد رقم 5"، وهي في حالة حفظ جيدة، وتعود هذه الأخيرة لشخص أنثى، بحيث تميّزت هذه الجمجمة بقلع ثماني قواطع (4 علوية و 4 سفلية)، وبانتمائها إلى إنسان من النوع المتوسطي ذي الملامح الزنجية (Briggs L.C. 1953:120).

استعمال العظام الطويلة

من بين البقايا العظمية التي عُثر عليها في هذا الموقع، تمّ اكتشاف عظم فخذ طراً عليه تحويل ليُستعمل كمطرقة ليّنة. وحسب ما لاحظته الباحثة كولين Collin G.L. عام 1928، فإنّ حافة هذا العظم مكسورة، ويبدو أنّ الكسر قد تمّ بطريقة متعمّدة.

إلى جانب ذلك، عُثر أيضاً على أداة أخرى حُوّلت وصيغت بعناية ودقّة أكبر من عظم العضد. ولكن، وللأسف، لم تتمكّن الباحثة كامبس فابرار من العثور على هذه الأداة عند مراجعتها للرسومات التي أنجزها كولان Collin G.L. عام 1928، ولا بين مجموعات المتحف الوطني البارود بالجزائر العاصمة (Camps-Fabrer H. 1966:186).

2. الحلقات الجمجمية

فيما يلي نعرض كل ما ورد عن الحلقات الجمجمية التي تُستخرج بعد تقطيعها من جمجمة الإنسان بعد الوفاة.

تُقطّع الجمجمة الإنسانية إلى أجزاء على شكل حلقات، مثقوبة أو غير مثقوبة. وفقاً لما ذكره الباحث بروكا (Broca P. 1876:250)، فإنّ هذه الحلقات كانت تُستعمل كتمائم، وقد أبرز ذلك في دراسته حول شعوب العصر الحجري الحديث والعصر النحاسي الأوروبي بين الألف الرابعة والألف الثانية قبل الميلاد.

يتم الحصول على هذه الحلقات التي تعدّ تمانماً عن طريق إجراء ثقوب أو فتحات في الجمجمة بعد وفاة الشخص. وقد ميّز بروكا Broca P. بين نوعين منها: تمانم مُنظمة وأخرى غير منتظمة. فالمنتظمة تُعدّل بعناية ويُهذّب محيطها بالصقل لتأخذ شكلاً قوسياً غالباً بيضوياً. ومن أمثلة هذه المجموعة: الحلقة المكتشفة في موقع

كلومناطة (تيارت)، التي صُنعت من جزء من العظم الجداري لجمجمة إنسان، وتتصف بشكل بيضوي وحواف مهيأة بعناية بالصقل، مع ثقب بالقرب من محيطها (شكل 3) (Cadenat P. et al.1994:10).

أما في الموقع 12 (الطارف)، فقد عُثر على حلقة من عظام الجمجمة مهيأة بطريقة غير منتظمة، دون صقل، وتحمل في مركزها ثقباً أُعدَّ من الداخل. وقد لوحظ من قِبل الباحث أنَّ هذه الحلقات جرى تنظيفها من الشوائب بعناية فائقة (Camps-Fabrer 1966:183).

ويرى بروكا أنَّ استخراج حلقات عظمية من جمجمة الإنسان بعد الوفاة يرتبط ارتباطاً وثيقاً بممارسة ثقب الجمجمة (trépanation) في حياة الشخص نفسه، أي قبل موته، وهي عملية قد ترتبط باعتقادات دينية أو طبية. فمن المعروف عند الشعوب القديمة أنَّ الطب كان قائماً في بداياته على السحر والتطير قبل أن ينتقل إلى الملاحظة والتجربة.

في هذا الإطار، استُؤصلت قطع صغيرة من الجمجمة على شكل حلقات لتستعمل كتمائم تُنسب إليها خصائص معينة. وهذه العملية تُجرى على الميت بعد وفاته.

إنَّ ارتداء التمايم المصنوعة من عظام جمجمة الإنسان كان من العادات الشائعة في عصور ما قبل التاريخ، إذ اعتُقد أنَّ لها قوة خارقة في الحماية من الأمراض، كالتشنجات والصرع. وقد ذكرت كامبس فابرا أن هذا الاعتقاد كان سائداً عند شعوب ما قبل التاريخ منذ العصر الحجري الحديث.

والهدف الأساسي من ثقب الجمجمة بعد موت الشخص هو الحصول على حلقات، مثل تلك التي عُثر عليها في موقع كلومناطة، وتحويلها إلى تمايم. إنَّ هذه الاستعمالات التي تركز على جثة الميت أو داخل جمجمته تتصل باعتقاد مفاده أنَّ الأرواح التي كانت تحرِّك الإنسان في حياته تستمر في العيش بعد موته. ومن خلال هذه العلاقة بين الروح والجثة تتفرع الطقوس الجنائزية لدى البشر (Camps-Fabrer 1966:185).

3. استعمال الأسنان الإنسانية

بعد استعراض أهم ما ورد حول استعمال العظام، تبين أنَّه قد عُثر أيضاً في بعض المواقع الأثرية على أسنان بشرية ذات خصائص مثيرة للاهتمام؛ إذ تحمل ثقوباً عند الجذور وحزوراً مُنقَّدة عن قصد

من بين الأمثلة على هذه الاستعمالات، ما عُثر عليه في موقع بورتال الفخار (تونس)، حيث صُنعت قلادة من قاطعة جانبية علوية، أُحدثت في محيط جذرها حزة تسمح بربطها وتعليقها (Gobert E.G., 1957:33). أما في موقع دار السلطان (المغرب الأقصى)، فقد عُثر على ضرس ذات نتوءين شديدي التلف، جرى حذف أحدهما بتقنية النشر، وتمَّ الحفر من الداخل نحو الخارج في النتوء الآخر، والهدف من هذه العملية هو استعمال السن للغرض نفسه الذي استُخدمت من أجله السن المكتشفة في موقع بورتال الفخار، وفقاً لما جاء به للباحث روهلمان Ruhlmann في عام 1951 (Camps-Fabrer 1966).

هذه الممارسات مألوفة جداً لدى بعض الشعوب حول العالم. فعلى سبيل المثال، في موقع يعود إلى العصر الحجري القديم الأعلى "لاكومب" (La Combe) بفرنسا، تمَّ العثور على سن مثقوبة، ما يدل على استخدامها كعنصر للتعليق.

وقد أشارت الأبحاث الإثنوغرافية إلى أنّ بعض القبائل حول العالم عمومًا، وفي شمال إفريقيا على وجه الخصوص، ما زالت نساؤها تضع أطواقًا أو قلادات مُرصّعة بأسنان بشرية، عادة ما تكون الأسنان المؤقتة لأطفالهن (Camps-Fabrer 1966:185).

4. الاستنتاج

من خلال بحثنا في موضوع تحويل واستعمال العظام البشرية في مواقع ما قبل التاريخ، ولا سيما في بلاد المغرب، وعند مراجعة الجدول 1 والشكل 11 الذي يوضح أنواع العظام المستغلة في هذه العمليات، تبين لنا ما يلي:

- وجود هذه الظاهرة في الفترة القفصية والفترة النيوليتية؛
- اتسمت الفترة النيوليتية بعدد قليل من المواقع التي اعتمدت على تحويل العظام البشرية عن قصد، على عكس الفترة القفصية التي شهدت وجودًا أكبر لهذه الممارسة، حتى وإن لم تكن منتشرة بصفة مألوفة مثل الفترة النيوليتية؛
- خلال الفترة القفصية، تم استغلال مختلف أنواع عظام الهيكل العظمي، بما في ذلك عظام الجمجمة والعظام الطويلة للأطراف العلوية والسفلية، بينما في الفترة النيوليتية، اقتصر الاستغلال على عظام الجمجمة فقط؛
- تم استخدام المغرة الحمراء في موقعين فقط، هما كلومناطة وفايد السوار، وكانت على الفك؛
- التقنيات المستخدمة في تحويل العظام شملت النشر والصقل؛
- تم تحويل العظام الطويلة لاستخدامها كأدوات، وذلك وفقًا لتصنيف الباحثة Camps-Fabrer في عام 1966.

تشير هذه النتائج إلى تباين في ممارسات تحويل العظام بين الفترتين القفصية والنيوليتية، حيث كانت الفترة القفصية أكثر تنوعًا وشمولًا في استغلال أنواع مختلفة من العظام لأغراض نفعية وطقسية. كما أن استخدام المغرة الحمراء وتقنيات النشر والصقل يعكس مستوى متقدمًا من المهارة والتخصص في معالجة العظام البشرية. بالإضافة إلى ذلك، فإن تحويل العظام الطويلة لاستخدامها كأدوات يعكس الحاجة إلى أدوات متخصصة في الحياة اليومية والممارسات الطقسية لتلك المجتمعات.

تساهم هذه الملاحظات في فهم أعمق للجانب الثقافي والاجتماعي لتلك الفترات، وتبرز أهمية العظام البشرية كمواد أولية في تشكيل الهوية والممارسات الطقسية للمجتمعات البشرية في ما قبل التاريخ.

جدول 1:

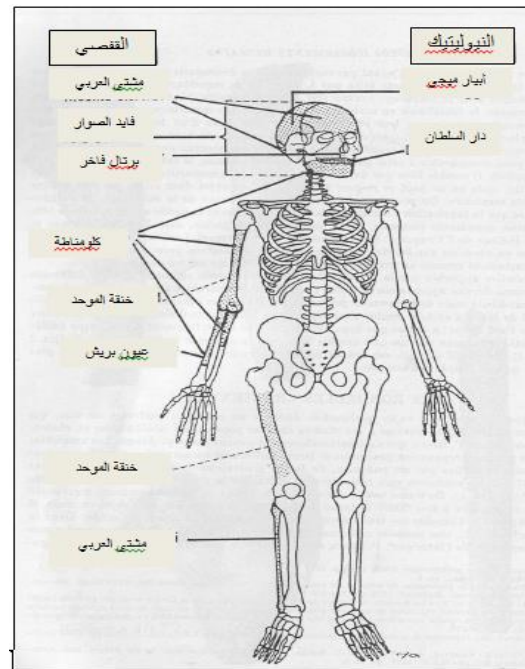
تحويل العظام في المواقع الأثرية بالجزائر (عن مؤلف المقال)

الموقع	نوع العظم	المكتشف	تحويل العظم	المغرة الحمراء	استعمال	المرجع	مكان الحفظ
مشتى العربي (شلغوم العيد)	قطع عظمية من جمجمة (عظام الجبهي والقذالي)	Debruge 1927	النشر والصلق تحمل ثقبان	-	غير معروف يمكن قلادة؟	Camps-fabrer H. 1966	المتحف العمومي الوطني البارودو (الجزائر)
	عظم الشظية (عظام طويلة)	Berthier 1952	التشذيب والصلق	-	خنجر	Balout L.1955 Camps-fabrer H. 1966	-
كلومناطة (تيارت)	قطع عظمية من جمجمة (العظم الجداري)	Cadenat P. 1940	النشر والصلق	-	قلادة	Camps-fabrer H. 1966	-
	فك سفلي (جزآن)	Cadenat P. 1940	النشر والصلق	نعم	أداة تعبد واجلال	-	-
	العظام الطويلة (عضد، كعبرة، زند)	Cadenat P. 1940	نشر	-	-	-	-
مجاز 2 (سطيف)	عظام الجمجمة (3) اجزاء العظم (القذالي)	Verguet M.1965	نشر وصلق	-	-	-	-
فايد السوار (أم البواقي)	عظام الجمجمة + عظم الفك العلوي	Laplace G. 1953	نشر وصلق تحمل ثقبان	نعم	قناع	Laplace G. 1954 Camps-fabrer H. 1966	متحف ما قبل التاريخ الايزي تياك (الدرودون-فرنسا)
عيون بريس (قسنطينة)	عظم الجداري	Pond A.W. Jenks A.E. 1930	حلقة جمجمية	-	-	Camps G. 1974. Camps-fabrer H. 1966	متحف لوقان فيسكونسين (الولايات المتحدة)

الأمريكة		عظام طويلة (عظم الكعبرة)		خنجر	-	مطرقة لينة		
المتحف العمومي الوطني باردو (الجزائر)	Camps- fabrer H. 1966	خنقة الموحد (تبسة)	عظام طويلة (عظم الفخذ وعظم العضد)	Debruge A. 1921	خنجر	-	مطرقة لينة	

شكل 13 :

موضع العظام المحولة على الهيكل العظمي خلال مرحلتي القفصي الأعلى والعصر الحجري الحديث



المصدر: مؤلف المقال (بتصرف)

الخاتمة

يبرز استخدام وتحويل العظام البشرية في بلاد المغرب خلال عصور ما قبل التاريخ كجزء لا يتجزأ من الثقافة المادية والرمزية لتلك المجتمعات. وتعكس هذه الممارسات تصوراً خاصاً للموت والحياة، كما تظهر كيف أنّ المجتمعات في ما قبل التاريخ كانت تستغل العظام الإنسانية في حياتها اليومية وكذلك في نطاق طقوسها ومعتقداتها.

وتبقى الإشكالية المطروحة حول استعمال وتحويل العظام البشرية باباً مفتوحاً أمام العديد من التساؤلات خاصة بما يتعلق بنظرة المجتمعات في ما قبل التاريخ للموت، والدلالات الرمزية التي ارتبطت بالعظام، إضافة إلى كيفية استخدام الموارد المتاحة في تلبية الحاجيات المختلفة. وتعتبر هذه الظاهرة مجالاً غنياً يحتاج إلى مزيد من التعمق والتحليل في البحث لفهم أبعاده الثقافية والروحية.

وعلى الرغم من الاعتقاد السائد بأن استعمال العظام الإنسانية ممارسة نادرة واستثنائية، إلا أنه من الضروري أن يحظى هذا الموضوع بمكانة مهمة في الدراسات الأثرية، وأن يأخذ البحث في هذه الممارسات مجالاً واسعاً، وأن يعتبر جزءاً أساسياً من فهم الحياة اليومية وطقوس ومعتقدات الشعوب في ما قبل التاريخ.

في المرحلة القفصية ببلاد المغرب، كان للعظام البشرية دورٌ مهم في الحياة الثقافية والرمزية، حيث تم استخدام العظام البشرية في هذا السياق ليس فقط كجزء من الطقوس الجنائزية، وإنما شملت صناعة أدوات وأشياء ذات طابع رمزي، يرجح أنها ارتبطت بطقوس تتعلق بالموت أو بالاحتفال بالحياة بعد الموت. كما تشير إلى ذلك الاكتشافات الباحثين في موقع فايد السوار وفي كلومناطة.

تلخص دراسة تحويل واستعمال العظام البشرية في عصور ما قبل التاريخ ببلاد المغرب في عدة محاور أساسية تبيّن تنوع الاستعمالات والدلالات الرمزية، إلى جانب التقنيات المتنوعة التي اعتمدتها المجتمعات في معالجة العظام في هذه الفترة.

وتشير الأدلة الأثرية إلى أن استغلال العظام البشرية لم تكن فقط لأغراض جنائزية أو رمزية، بل كانت أيضاً مواد أولية لصناعة الأدوات، ما يعكس هذا براعة الإنسان في توظيف الموارد المتاحة بشكل كامل، كما يتضح في بعض المواقع مثل مشتي العربي، عيون بريش، وخنقة الموحد.

وقد يرتبط استخدام العظام البشرية في الكثير من الأحيان بقيم رمزية وروحانية، خاصة في الطقوس الجنائزية أو الاحتفالية. ومن المحتمل أن يكون هذا الاستخدام جزءاً من ممارسات عقائدية تعكس مكانة المتوفى أو العلاقة الروحية بالموتى داخل هذه المجتمعات، وربما يشكل موقع فايد السوار مثلاً على ذلك، رغم عدم وجود دليل على ذلك.

أظهرت المجتمعات القفصية ببلاد المغرب مستوى متقدماً في التعامل مع العظام البشرية، من خلال اعتماد أدوات دقيقة، وتقنيات متطورة مثل النشر، النحت، الثقب، والصقل، كما هو موضح في الجدول 1.

ورغم نقص الدراسات في هذا المجال، فقد كشفت الأدلة الأثرية عن استمرارية ثقافية بين الفترتين القفصية والنيوليتية، حيث انتقلت الممارسات المتعلقة باستخدام العظام البشرية وتطورت عبر الزمن، مما يعكس ذلك نوعاً من الاستمرارية في العادات والمعتقدات المرتبطة بالموت والدفن. ومع ذلك، لم يتم العثور على أدوات مماثلة خلال الفترة الإيبرومغربية.

تشير هذه الملاحظات إلى وجود تباين وتنوع في ممارسات تحويل العظام بين الفترتين القفصية والنيوليتية، إذ تظهر المرحلة القفصية تنوعاً أكبر في استغلال مختلف أنواع من العظام لأغراض نفعية وطقسية. كما أن استخدام تقنيات متقدمة مثل النشر والصقل يعكس مستوى متقدماً من المهارة والتخصص في معالجة هذه العظام. ويُبرز تحويل العظام الطويلة إلى أدوات، الحاجة إلى وسائل عملية مخصصة للحياة اليومية والممارسات الطقسية.

تساهم هذه النتائج في فهم أعمق للجانب الثقافي والاجتماعي لتلك الفترات، وتبرز أهمية العظام البشرية كمادة أولية في تشكيل الهوية والممارسات الطقسية للمجتمعات البشرية في ما قبل التاريخ. إلا أن الأدلة الأثرية المتوفرة لا تتيح، في وضعها الحالي، بناء صورة متكاملة ونهائية، حول الحياة الطقسية والروحية، فهذا الموضوع لا يزال في حاجة إلى مزيد من الاكتشافات والتحليل متعدد التخصصات.

البيبلوغرافيا

الدراسات:

1. Aoudia-Chouakri L. et Bocquentin F., (2009), Le crâne modifié et surmodelé de Faïd Souar II (Capsien, Algérie). Masque, trophée ou rite funéraire ? *Cahier IX – 2007-2008 des thèmes transversaux ArScAn, Table ronde - Traitements ostentatoires des crânes humains : gestes funéraires ou introduction à l'univers du sacré : Thème 6 - Cultes, rites et religions* : 171-178. <https://hal.parisnanterre.fr/hal-01994653v1>
2. Aoudia-Chouakri L. (2013), Pratiques funéraires complexes : réévaluation archéo-anthropologique des contextes ibéromaurusiens et capsien. Paléolithique supérieur et épipaléolithique, Afrique du Nord-Ouest. *Thèse de doctorat*, Université de Bordeaux 1. <https://theses.hal.science/tel-01059817v1>
3. Balout, L., (1954). Les hommes préhistoriques du Maghreb et du Sahara: Inventaire descriptif et critique. *Libyca*, t. 2, p.215.
4. Briggs C., (1953), Tête osseuse de Khanguet-el-Mouhaad (Fouille de Morel). *Libyca*, t.1, pp.120-140.
5. Broca M. -P., (1876), Sur la trépanation du crâne et des amulettes crâniennes à l'époque néolithique. *VIII^e Congr. Internat. D'Anthrop. Et d'Archéol. Préhist.*, Budapest, pp. 101-196.
6. Cadenat P., Camps G., Chamla M.-C., Dastugue J. et Camps-fabrer H., (1994), «Columnata », *Encyclopédie berbère*, 13. <http://journals.openedition.org/encyclopedieberbere/2316>.
7. Camps-Fabrer H., (1960), Parures des temps préhistoriques en Afrique du Nord. *Libyca*, 8 : 9-221.
8. Camps-Fabrer H., (1966). Matière et art mobilier dans la préhistoire Nord-africaine et saharienne, *Mémoire du C.R.A.P.E.*, N° 5, Paris.
9. Camps-Fabrer H., (1975), Un gisement capsien de Faciès sétifien. Medjez II. El-Eulma (Algérie), *C.N.R.S.*, Paris.
10. Camps G., (1974). Les civilisations préhistoriques de l'Afrique du Nord et du Sahara, Paris.
11. Chamla M.-C., (1978), Le peuplement de l'Afrique du Nord de l'épipaléolithique à l'époque actuelle. *L'Anthropologie*, t.82, n°3, pp.385-430.
12. Gobert E. G., (1957), L'abri de Bortal Fakher. *Libyca*, 5: 33-47.
13. Grébenart D., (1993), « Capsien », *Encyclopédie berbère*, 12. <https://journals.openedition.org/encyclopedieberbere/2057>